# الحكومة العتيدة: اولاً احضنوا الفقراء

النقيب المهندس سليمان هارون

"لا يعود الفقراء يثورون، عندما لا يعود الاثرياء يتسلطون"
نابوليون الثالث

لم تكن اي من الثورات الشعبية الكبيرة في التاريخ عفوية او وليدة ساعتها، ولاهي قامت من اجل سبب وحيد، بل ان لكل منها اسباب متشعبة تراكمت على مدى سنين واجيال قبل ان تبلغ درجة خطرة من الكثافة تجعلها تنفجر وتجرف معها النظام القائم. فهناك دائماً حوادث سياسية او منظومات فكرية او مصالح امية وشخصية ... تختلط بعضها ببعض وتجعل من الوضع اشبه ما يكون بقنبلة موقوتة. الا ان صاعق التفجير كان دائماً هو ذاته : فرض ضرائب من قبل الحاكم لسد العجز في خزانة الدولة الناتج عن الحروب اوالفساد او الاثنين معاً في الوقت الذي يعاني فيه الشعب من الفقر . وهنا بعض الامثلة:

في اواسط القرن السابع عشر، بدأت الخلافات بين ملك انكلترا شارل الاول والبرلمان، عندما رفض البرلمان زيادة الضرائب لتمويل حروب الملك في فرنسا واسكتلندا وايرلندا. وتفاقمت الخلافات بينهما، وكانت النهاية مأساوية ادت الى محاكمة الملك وقطع رأسه سنة ١٦٤٩ وقيام جمهورية كروميل حتى سنة ١٦٦٠ تحت اسم "كومنلولث انكلترا واسكتلندا وايرلندا" .

أما في فرنسا، وفي عهد لويس السادس عشر، فبعد سنوات من الانفاق على الحروب ضد انكلترا في اوروبا وفي المستعمرات الاميركية، وبعد عهود من الفساد في البلاط الملكي وتكديس المال لدى المتنفذين والبورجوازيين واصحاب البنوك التي تقرض الدولة ... وهو ما جعل الملك يزيد الضرائب على الشعب، اتت سنة ١٧٨٨ مع محاصيل زراعية ضعيفة بسبب الجفاف والبرد فتضاعف سعر الخبز وتبخرت القوة الشرائية فاقفلت المشاغل وتوقف الحرفيون عن العمل وزادت البطالة . وهكذا انفجرت الثورة وادت الى قطع رأسي الملك وزوجته.



في بدايات القرن العشرين، وبفضل قروض ضخمة كانت تحصل عليها من بورصة باريس، شهدت روسيا ازدهاراً مصطنعاً استفاد منه المتنفذون و النبلاء المقربون من الامبراطور نيكولاس الثاني في الوقت الذي كان يعاني ما يزيد عن ٨٥٪ من الشعب من الفقر المدقع . لقد بقي المزارعون الروس حتى سنة ١٨٦١ يعملون تحت نظام العبودية على الاراضي التي يملكها الاغنياء حين "اعتقهم" الامبراطور الكسندر الثاني ولكن نظرياً، لانه لم يكن باستطاعتهم ان يتملكوا اي ارض كي يعملوا عليها وهو ما ادى الى انطلاق الثورة الاولى سنة ١٩٠٥ بعد خسارة روسيا الحرب ضد اليابان . حينها توافد المزارعون الى قصر الامبراطور يطالبون بتوزيع بعض الاراضي عليهم كي يتمكنوا من العيش عليها، فاطلق الجنود النار عليهم وكانت هذه البداية التي ادت الى الثورة البولشفية سنة ١٩١٧ وابادة عائلة رومانوف الحاكمة.

في لبنان، وبالرغم من بعض اوجه الشبه مع المراحل التاريخية التي ذكرنا لم ولن تقوم ثورة فقراء ضد الحاكم اي كان، فلا حاجة لزعمائنا الاحباء ان يتأكدوا كل يوم انهم في صحة جيدة. فهم كذلك بالتأكيد، اذ ليس عندنا نظام معروف المعالم كي يثور احد عليه. فنحن "ننعم" بنظام طائفي محصن، يتكفل بالقضاء على اية حركة شعبية اذا ما تجاوزت حدود المطالبة الكلامية والاضرابات والمسيرات ورفع اليافطات. فالخطوط الحمر مرسومة بشكل دقيق وممنوع تجاوزها.

ولكن نحن عندنا شئ آخر اكثر خطورة وفتكاً . فهؤلاء الفقراء الممنوع عليهم الثورة من اجل لقمة العيش، والذين سدت في وجوههم ابواب الحياة الكريمة، اصبحوا هدفاً سهلاً يمكن شراؤه لكل من تخوله نفسه التلاعب بالامن والسلم الاهليين . فهو يسلحهم ويدفعهم الى الاقتتال تحت عناوين سياسية او طائفية مرفوعة من الداخل او من الخارج، وصاروا بدلاً من ان يثوروا على الظلم والفساد والاهمال، باتوا يتقاتلون مع بعضهم البعض في الاحياء والازقة التي يعيشون فيها، فقراء من مختلف الطوائف والمناطق ، دون ان يتوانوا عن قتل زعماءهم السابقين من وقت الى آخر.

لقد خرجت الحرب الاهلية في لبنان سنة ١٩٧٥ من احزمة الفقر اللبنانية، والمخيمات الفلسطينية التي تنافسها في الفقر، وامتدت لتلتهم كل المناطق وضاع البلد ومات من مات وهاجر من هاجر اما النظام فبقي هو هو، لم تسقط شعرة من رأسه وها هو اليوم يعود لانتاج نفس المناخ الذي يجعل من الفقراء وقوداً لحروب الآخرين بدلاً ان يجعلهم مواطنين صالحين.

لا يمكن ان تحصل حرب بدون الفقراء . فالاغنياء قطعاً لا يحاربون. وكذلك يكون مستبعداً كثيراً ان يحمل البندقية من يتأمن له العيش الكريم من طبابة وتعليم واحترام لحقوقه المواطنية والانسانية . ومهما بلغت كلفة هذه الحقوق فهي تبقى اقل ثمناً من اي اقتتال داخلي .

اليوم نحن على ابواب تأليف حكومة جديدة. الاولوية يجب ان تكون باحتضان الفقراء فوراً وتجنيد كل الامكانيات المالية والبشرية لمساعدتهم وهو ما سيعود بالنفع على الجميع. فالازدهار الحقيقي هو الذي يطال كافة المواطنين وليس فقط بعض المتمولين وهو الذي يؤمن السلام .

الدولة، المجتمع المدني، المؤسسات الانتاجية، الاوقاف الدينية كلها يجب ان تعمل معاً ضمن خطة مبرمجة مشتركة واضحة الاهداف لمكافحة الفقر في لبنان والا سنبقى كمن يعيش على فوهة بركان، لا بد ان ينفجر بنا والتاريخ خير شاهد على ذلك.